التقابل المكاني الأخروي في سورة الواقعة

دراسة بلاغية وصفية

د . أسماء سعود ادهام الخطاب(*)

مدخل

اهتم القران الكريم اهتماما كبيرا بتقرير حقيقة يوم الآخر وما فيه من نعيم وعذاب وجزاء وحساب ، وتعد الجنة والنار من ابرز الثنائيات في عقيدة اليوم الآخر وهي في الأبعاد الدينية الكبرى في التصور الإسلامي ، وقد جاءت رسالات السماء مخبرة ومبينة بان الجزاء الأخروي آمر حتمي وحدوثه قطعي فهناك يوم عظيم سيجتمع فيه كل الخلائق وينصب أمامهم ميزان العدل فيجازي المؤمن على إيمانه، ويجازي الكافر على كفره ثم يكون لكل منهما مصير مستقر فالمؤمن له الجنة ونعيمها وفي هذه السورة يتمثل ذلك بالسابقين وأصحاب اليمين، والكافر له النار والعذاب ويتمثل ذلك بأصحاب الشمال.

إذن ورد في سورة الواقعة ثلاثة أصناف من الناس لكل صنف طبيعته وجزاؤه و إذا ما أردنا التعرف على صفات هذه الأصناف الثلاثة علينا أن ننطلق من (المكان) فهو في الحياة الآخرة حامل لمعنى ولحقيقة ابعد من حقيقته الملموسة من خلال الوصف المقدم، حيث يشكل المكان فيها بنية حية مؤثرة لها

(*) مدرس في قسم اللغة العربية _ كلية الآداب / جامعة الموصل.

خصوصيتها الفكرية، والمكان الذي نعنيه ليس المكان المفرغ إنما المكان الفاعل الذي يشكل مركز الحدث ويمنح الشخصيات فيه هوية، فمن المستحيل بناء الحدث والشخصية في مكان لا ملامح فيه، ويعد الوصف من أهم الأساليب في تجسيد المكان بشكل عام والمكان الأخروي بشكل خاص حيث يمنحه حضورا وعمقا دلاليا، فضلا عن كونه يقدم حالة من الإحساس البصري للمتلقي كي يتمكن من تصوير أصناف الناس الثلاثة داخل المكان (الجنة/ النار) فيحدث نوع من الترابط أو الاتصال الذهني بين النص والمتلقي بما يثيره في النفس المتلقي من رهبة أو رغبة حيث يعمد المتلقي إلى ربط حيثيات المكان الموصوف بمدركاته الخارجية وما يعيه من معالم الدنيا فتصبح المعادلة الشعورية كالآتي:

النص القرآني ← المكان ← المتلقي

↓ ↓ ↓

الترغيب أو الترهيب ← الجنة / النار ← الإحساس بالتآلف

أو الإحساس بالتنافر

وكما هو معروف فالبشر يتفاوتون في مستوى الإدراك الذهني للأشياء التكوينية أو الحسية التي يصورها النص القرآني من نعيم وعذاب، وتختلف درجات الاستيعاب للمضامين الفكرية من فرد إلى آخر تبعا لحدود النظر أو حجم الرؤية للمكان ونعيمه أو عذابه، لذا جاء النص مخاطبا العرب بأسلوب منسجم مع مفهوماتهم وأحوالهم ، ومتناول إدراكهم وحسهم، وكل ما ورد فيه على سبيل التقريب، واستهدف فيما استهدفه الخوف والرهبة في نفوس الضالين حتى يرعووا

ويستقيموا، وبث الاغتباط والطمأنينة في المعادلات البلاغية الآتية : نفوس المؤمنين الصالحين حتى يثبتوا على الطريق القويم الذي هدوا إليه ويأتي البعد المكاني ظاهرة بارزة في خلق التقابل بين (السبقون) و (أصحاب اليمين) و (أصحاب الشمال) وفق المعادلات البلاغية الآتية:

الجنة = السابقون + أصحاب اليمين / السابقون تخالف أصحاب اليمين
النار= أصحاب الشمال / السابقون+ أصحاب اليمين تقابل أصحاب الشمال

التقابل الأول: في الجنة حيث مقام (السابقون) و(أصحاب اليمين)، وكلا الصنفين يتقابلان تقابل تخالف، فكلا الصنفين في الجنة يكونان مختلفين فليس كل تقابل تناقضا أو تضادا بل فيه ما يكون تغايرا بين المتقابلين (1).

التقابل الثاني: حيث مقام (أصحاب الشمال) من جهة ويقابلهم الجنة حيث (السابقون) و (أصحاب اليمين) من جهة أخرى تقابل تضاد وكلا الطرفين تحت جنس واحد، ولكن ينافي أحدهما الآخر أوصافه الخاصة وبينهما ابعد البعد، فالنعيم والعذاب لا يجتمعان في شيء واحد وفي وقت واحد . والتقابل بين الفريقين منم شأنه "الكشف عن فنية الأسلوب وتجلي مستويات المعنى بأبعاده المختلفة (2)، لأنه يجمع بين متضادين متنافرين، وبالتضاد والتنافر تتبين الأشياء ونجد النفس في ذكرهما مجموعتين لذة، لان اللذة في التقاء الضدين(3)، وبذلك فان التضاد هو

---

(1) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي: 331/1 (الاختلاف).

(2) في البنية والدلالة، سعد أبو الرضا /37.

(3) الروض المريع في صناعة البديع، المراكشي /111.

مرتكز بنائي تتكئ عليه هذه المشاهد في مكوناتها وعلاقتها، لأنه يشيع من مفاصل النص حركة بين عناصر متضادة تجلي المعنى المقصود من اجل بيان(4).

المحور الأول : السابقون

أول ما يشد الانتباه هو ذكر لفظ (السابقون) مرتين وعدم الاكتفاء بالضمير المنفصل (هم) الذي كان بالإمكان أن يجئ بعد اللفظة الأولى في هذه الصورة مثلا السابقون هم أولئك المقربون. ولكن الذي جاء هو لفظ السابقين صريحا دليلا على الرغبة في شد الانتباه شدا إلى مكانة هؤلاء المقربين وحالهم التي بلغت منتهى الفضل والرفعة بحيث لا يجد المتكلم خبرا يخبر به عنهم أدل على مرتبتهم من اسم (السابقون).، وهو هنا مستعمل على سبيل الكناية ويجوز أن يكون (السابقون) مستعملاً على الحقيقة في دلالته المبادرة والإسراع إلى الخير في الدين(5)، كما في قوله تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار)(6) أو مستعملا في المغالبة في تحصيل الخير(7) كقوله تعالى :(أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون)(8) وهؤلاء السابقون لهم درجة أخرى فهم (مقربون) وقد يسأل السائل من كانت له هذه الدرجة من الاجتباء والاصطفاء. كيف يكون مكان إقامته وما هي صفاته ؟ مكان (السابقون) الذي عرض هو في أقصى درجات الجمال والكمال إذ اتسم بالتنوع الكبير في عناصره ومكوناته، فقد رسم القرآن لهذا المكان جملة

---

(4) في البنية والدلالة /42.

(5) تفسير التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور :286/27.

(6) سورة التوبة :100

(7) تفسير التحرير و التنوير :286/27.

(8) سورة المؤمنون :61.

صفات جمعت بين الأمن والفوز والاستقرار الحسن في مكان له من العظمة وعلو الشأن انه قريب من الرحمن، وأول هذه المناعم تبدا بمكان الجلوس والراحة(على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين) فهذه السرر موضونة: أي محكمة وهي المسبوك بعضها ببعض منسوجة بقضبان من ذهب (9). ومع هذا الترف يوجد الراحة والرضا والغبطة فهم (متكئين متقابلين) وهذا فيه بيان لما كان الجمع من الناس إذا كثر كان ظهور بعض أهله إلى بعض فجموع أتهل الجنة غير ذلك فهم متكئون متقابلين فلا بعد بينهم ولا مدابرة ولا ينظر بعضهم إلى قفا بعض ولا يكره بعضهم بعضاً (10) وهذا تمام النعيم ، وبعد الجلوس والاتكاء ماذا يستلزم الإنسان؟ المشارب وما يتبعها وهي من متع الحياة والتي تشكلت جمالياً في الجنة لان المتعة أصبحت أبدية وهنا نصل إلى العناية الآلهة التي تتجاوز كل مقاييس الجمال في تحقيق حياة هانئة تتوفر فيها مسلتزمات الحياة، وهذه المشارب تتمثل بـ(بأكواب وأباريق وكأس من معين) فالساهون مخدمون لا يتكلفون شيئا يطوف عليهن لهذه الأواني والأكواب بالشراب غلمان صباح الوجوه، ولاتدركهم السن، وهذه الأكواب والكؤوس مما لا يعوق الشارب منها عائق عن الشرب من أي موضع أراد فلا يحتاج إلى أن يحول الإناء إلى الحالة التي تناوله عنها ليشرب. كل ذلك ينسجم ويتناسب مع لفظة (معين) والمعين الجاري(11)، والمراد به الخمر التي لكثرتها تجري في المجاري كما يجري الماء وليست قليلة عزيزة كما هي في

---

(9) لسان العرب، ابن منظور ، مادة وضن :450/13.

(10) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، البقاعي :203/19.

(11) لسان العرب، مادة (عين) :303/13.

الدنيا(12) وليس هذا فحسب فلهذه الخمر صفات أخرى، فشاربها لا يصدع عنها والصدع: الإصابة بالصداع وهو وجع الرأس من الخمار الناشئ عن السكر، لكن خمر الآخرة لا يصيب بصداع فهي منزهة عن ذلك ويتبع هذا النعت وصف آخر هو أنها لا تنزف إذا شربها أهلها فالخمر حين حرمت في الحياة الدنيا على المسلمين إنما حرمت لعيونها ومضارها وقد عرف العرب عيوبها من قبل فهي تذهب بلب شاربها فيهيم ولا يستطيع التفكير الصحيح ويفقد السيطرة على أفعاله وجوارحه. فعند تتبع هذه الصفات تتضح حقيقة المقارنة التي يقوم عليها التداعي في ذهن المتلقي لان طبيعة التداعي تقوم على عوامل التذكر واستحضار الماضي بسياق تداعي الأفكار التي تستثير مشاعر المتلقي عبر الصور المتلاحقة عن طريق وساطة من ذاكرة اللاوعي فيحدث الربط ما بين صورة خمر الآخرة وصفاتها وبما ترسب في الذاكرة من صفات خمر الدنيا فيحدث نوع من الوثبة النفسية الداعية إلى تحويل التفكير إلى مساره الصحيح بعقد المقارنة بين المخمرتين، فسيبدو له خمر الدنيا فراغ الذات من إمكانية البقاء لأنها تعقب بألم وأذى كما أنها أعانت على اتباع أهواء النفس أما خمر الآخرة فسيمثل امتلاء الذات بإمكانية الاستقرار والثبات لأنها منزه عن الآفات التي في خمر الدنيا. ولما بدأ الحق ـ سبحانه ـ بالألذ الهاضم للأكل تلاه بما يليه مما يدعو إليه الهضم تصريحا به بعد التلويح(13) حيث قال (وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون) فبعد الشراب يأتي الطعام و طعام الجنة يتنوع ويتسع ليشمل ألذ ما يتمناه المرء في الدنيا مما كان صعب المنال ومنه الفاكهة واللحم، وقد أوكلت الفاكهة للاختيار و اللحوم

---

(12) تفسير التحرير والتنوير : 294/27.

(13) نظم الدرر : 204/19

للاشتهاء وذلك لان الفواكه أعز في المنال وبهذا يظهر وجه المخالفة بين الفاكهة ولحم الطير فجعل التخير للأول لان فواكه الجنة متنوعة وتنوع الأصناف يؤكد على حرية الاختيار (14) وهذه الحرية تشعر الإنسان بقيمته فالجمال هو الحرية وان الشيء جميل بمقدار ما ه و حر (15)، ومن هنا تبرز القيمة الجمالية للاختيار، وجعل الاشتهاء للحوم ولحم الجنة من أطيب أنواع اللحوم قال ابن عباس: " يخطر على قلبه الطير، فيصير ممثلا بين يديه على ما اشتهى "(16) والاشتهاء" علق بالطعام منه بالفواكه فلذة كسر الشرهية بالطعام لذة زائدة على لذة حسن الطعم" (17) فذكر الفاكهة واللحم إشارة إلى ما يكون فيه أهل الجنة من الترف والنعيم فالمعتاد ان هذين النوعين من الطعام يسعد بهما الأغنياء المترفون(18)، فتناول الطعام في الجنة على سبيل التلذذ والشهوة لإكمال نعيم الجنة لا على سبيل الحاجة والضرورة وهنا تتجسد قيمة وسعادة ال فهذه الصورة تتمثل أمام إدراك المتلقي سواء تم إدراكها عن طريق الحس المباشر أو عن طريق الصورة الذهنية غير المباشرة التي تعتمد على إثارة صور وانطباعات في الذاكرة حول ماهية هذا اللؤلؤ المكنون وبذلك يصبح المعنى أقوى وأكثر تمكنا في ذهن المتلقي لان هذه الصورة يصاحبها إثارة وجدانية نتيجة للانطباعات التي يحملها المتلقي، فيتداعى إلى الذهن صورة اللؤلؤ المكنون وما يحمله من إيحاءات فهو يجمع بين: الصيانة والحفظ + الستر عن العين في صدفة و الخزن لأنه لا يحزن إلا الثمين الغالي + اللون

---

(14) تفسير القران العظيم، ابن كثير :286/4.

(15) فلسفة الفن عند العقاد، جلال عشري، مجلة الفكر المعاصر، ع1، 1965م/90.

(16) زاد المسير في علم التفسير ، الجوزي :137/8.

(17) تفسير التحرير والتنوير :295/27.

(18) المشاهد في القران الكريم، د. حامد قنيبي /211.

الأبيض و اللون الأبيض له تأثير في الحالة النفسية للمتلقي. فقد اكتسب عرفيا كثيرا من التعلق بأجواء الصفاء والإشراق والسعادة(19)، ولما كان افضل لون عند العرب فقد عبر عن الفضل والكرم به حتى قيل لمن لم يدنس بمعاب هو أبيض الوجه كناية عن الطهر والنقاء (20)، إذن جعل التشبيه في ثناياه كناية عن معان حسية ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور الحسان العيون، فهن في غاية الحسن والجمال والكمال والعفة والنضارة في خلقهم وخلقهم فكل ما تقدم هو مكافأة يتحقق فيها الكمال الذي كان ينقص كل المناعم في دار الفناء فأثبت الحق – سبحانه – لهذه الجنة وساكينها الكمال وليس هذا فحسب بل نفى عنها النقص بان أتم على ساكينها نعمة روحية (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما) لان "سلامة النفس من سماع ما لا يحب سماعه ومن سماع ما يكره سماعه من الأذى نعمة براحة البال وشغله بسماع المحبوب"(21) واتبع ذكر هذه النعمة بذكر نعمة أخرى من الأنعام بالمسموع الذي يفيد الكرامة لان الإكرام لذة روحية يكسب النفس عزة ودلالا بقوله: (إلا قيلا سلاما سلاما) وهذا القيل يتلقونه من الملائكة الموكلين بالجنة.

المحور الثاني: مكان أصحاب اليمين

أتم الحق – سبحانه – الصنف الأول وذكر في جزائه مما لأصحاب المدن ما لا يمكنهم الوصول إليه ثم اتبعه بما هو دونه وذكر في جزائهم ما يلبي هواتف آهل البداوة حسبما تبلغ مداركهم وتجاربهم من تصور ألوان النعيم، فهم أصحاب

---

(19) اللغة واللون، احمد مختار عمر /69

(20) المفردات، للراغب /66.

(21) تفسير التحرير والتنوير :296/27.

اليمين المؤمنون أهل الجنة والسعادة (22) وهم "أصحاب الميمنة" (23) أي اليمين والبركة(24)، وقال الزمخشري فيهم عدة أقوال:

- الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم
- أصحاب المنزلة السنية من قولك: فلان مني باليمين إذا وصفته بالرفعة
- أصحاب اليمين لان السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم
- أصحاب اليمين هم الموجهون في الجنة ذات اليمين(25)

ومن خلال الجمع بين هذه الأقوال يتبين أن المؤمنين يأخذون نتيجة الحساب كتاباً بأيمانهم فيجدون النعيم والثواب فتكون منزلتهم حسنة ومكانتهم مرموقة (26)، وهو المعنى الذي يفهم من وراء الكناية، والمسوغ لاستعمال (اليمين) للدلالة على القوة على سبيل المجاز المرسل هو علاقة السببية فاليمين سبب القوة أو الآلية عند عدد من البيانيين على اعتبار ان اليمين آلة القوة(27) اذن فاليمين ارتبطت دلالاتها بالخير والبركة والسعادة والقوة والعناية(28)، وسموا بأصحاب اليمين لانهم قد انتهوا إلى أماكنهم في الجنة فاستغنى عن ذكر المكان واكتفى بذكر المكانة (29)،

---

(22) التفسير الكبير، الرازي: 142/29 .

(23) سورة الواقعة:8

(24) تفسير التحرير والتنوير: 285/27.

(25) الكشاف 363/4.

(26) ألفاظ الثواب في القران ، عماد عبد يحيى ، رسالة ماجستير/ 304-305.

(27) الكناسة في القران الكريم ، احمد فتحي رمضان ، أطروحة دكتوراه / 295.

(28) ألفاظ الثواب في القران / 304.

(29) سورة الواقعة ومنهجها في العقائد ، محمود محمد غريب / 39 0

واعادة اللفظ نفسه (ما أصحاب اليمين) جاء إشارة إلى أن العقل مهما وصف له النعيم فإن تصوره لن يتسع لإدراكه فترك العقل أن يتصور عظيم جزائهم عند الله على قدر إدراكه واستعداده في التصوير وهذا سر إعادة اللفظ نفسه، واول ما يطالعنا من نعيم الفاكهة لانه عيش الجنة كله تفكه، ذاكراً منها ما ينبت في بلاد العرب من غير كلفة بغرس أو خدمة (في سدر مخضود وطلح منضود) ولما كان السدر من شجر البادية وكان محبوباً للعرب ولم يكونوا مستطيعين أن يجعلوا منه في جناتهم وحوائطهم لانه لا يعيش إلا في البادية خص الذكر من بين شجر الجنة اغراباً بمحاسنه التي كان محروماً منها من لا يسكن البوادي وبوفرة ظله وتهدل أغصانه ونكهة ثمره، ووصف بالمخضود أي المزال شوكه اكتمالا لمحاسنه بانتقاء ما فيه من أذى وهنا يظهر لنا تضاد خفي نتج عن التقابل بين السدر والطلح / الظل، فشجر السدر والطلح لا يكون وينمو بشكل جيد إلا في البلاد الحارة ، وبعدها ذكر (الظل الممدود) فالمؤمنون في مقامهم الهادئ المريح ينعمون في جو معتدل لا يعانون فيه الحر الشديد ولا البرد القارس المؤذي فهم في ظلال معتدلة ممتدة يحسون فيها بالراحة على نحو ما يحس رجل الصحراء في ظلال شجرة تظهر له فجأة عبر الرمال ولهيب الشمس ففي الجنة زيادة في النعيم والمتاع وعنه عليه السلام قال : [إن هواء الجنة سجسج لا حر ولا برد] والسجسج الظل الممتد كالوقت بين طلوع الشمس وهو ظل يصحبه ضياء مستديم لا ليل فيه ولا نهار ولا شموس ولا أقمار ظل ممدود (30)، فحدث لدنيا تقابل بين الزمان والمكان مع نزوعهما إلى التقارب، والتوتر الناتج عن اختلافهما يكاد ينعدم فينسجمان

---

(30) تفسير التحرير والتنوير: 299/27

ويتضافران للتعبير عن معنى واحد هو كمال القدرة الآلهة وكمال الرحمة والفضل في استيعاب الزمان والمكان في عملية الإيجاد هذه، وهذا التنوع والانسجام بين الأزمنة والأمكنة لا يعقل أن يصدر إلا من حكيم عليم وانسجاماً مع مقومات وخصائص المكان الذي يتوق إليه البدوي ذكر الماء في هذه الجنة مسكوباً فالصحراء لا توجد فيها انهار دائمة الجريان وانما وديان تسير فيها المياه وقت الأمطار وسرعان ما تتلاشى وتغور(31)، فمثلاً في مكة لا يوجد ماء جار أبدا إلا ما يحتفرونه من آبار وعيون(32)، والمدينة حياتها على السيول وقت الأمطار وعلى الآبار سائر السنة، أما جدة فان أهلها في تعب دائم من الماء (33)، فعندما يذكر الماء المسكوب يستحضر المتلقي معاناته تلك في البحث عن الماء وإيجاده لكن يحدث عملية قطع للتداعي الحاصل لان الماء المسكوب في الجنة جار في منازلهم من غير أخدود ولا يحتاجون فيه إلى جلب من الأماكن البعيدة ولا الإدلاء في بئركما لاهل البوادي(34) فالماء يسكب لهم ويصب كلما أرادوا وأينما شاءوا بلا تعب ولا نصب فهو مد أيديهم يسيل على الأرض من غير انقطاع فيأخذون منه حاجتهم ويتمتعون به وبمنظره، وهذا بدوره يضفي على الماء جمالاً اكثر من حاجة الإنسان إليه.

وبعد أن خص الحق – سبحانه – بالذكر السدر والطلح انتقل إلى العام (وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة) ووصفت بـ لا مقطوعة ولا ممنوعة وصفاً بانتفاء ضد المطلوب إذ المطلوب أنها دائمة مبذولة لهم والنفي هنا أوقع من

---

(31) صورة الأرض، ابن حوقل /27.

(32) البلدان، اليعقوبي /316.

(33) احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،المقدسي /79.

(34) نظم الدرر : 208/19.

الإثبات لانه بمنزلة وصف وتوكيد وجمع بين الوصفين لان فاكهة الدنيا لا تخلو من أحد ضدي هذين الوصفين فان أصحابها يمنعونها فان لم يمنعونها فان لها أبانا تقطع فيه(35) مما زاد من انس العيش في هذه الجنة وجود الفرش المرفوعة وهي كناية عن النساء(36) توحي بصفات جمالية تنهض من خلالها عناصر مادية محسوسة محببة إلى النفس بحيث تصعد من وصف العلاقة الزوجية والمتعة الحسية إلى مستوى جمالي غير معهود في الحياة الدنيا فإنها موحية بالرفعة والطهارة وهي دلالة معنوية فوق الدلالة الحسية تستدعي إحداهما الأخرى فهو نعيم تلتذ به الأجسام والنفوس (37)، فالفراش ملزوم واريد به لازمه وهي الزوجة في الجنة فحدث لدينا علاقة استبدالية بين الكائن والمكان وهنا تكمن لذة المتخيل لان المتلقي سيعمل على استحضار كل ما يمكن أن ينطوي تحت عبارة (فرش مرفوعة) من معاني حسية ومعنوية، والاتكاء على الأدوات البلاغية في تحقيق بلاغه المكان في صوره المختلفة يسمح بتلمس لذة المتخيل على الصعيد المكاني وعندها تصبح الشخصية جزء لا يتجرأ عن المكان، فالمكان بكل أحواله في الجنة هو نتيجة وعي أو إدراك شامل لخصائصه التي تكتمل في فكر المتلقي ومن خلال وصف المكان – الجنة – أمكننا الوصول إلى الصورة الحقيقة نوعاً ما للامتداد الذي يشكله المكان في النص، فصفات هذا المكان مستمدة من طبيعة الإقليم الجغرافي في البيئة نوعاً ما للامتداد الذي يشكله المكان في النص، فصفات هذا المكان مستمدة من طبيعة الإقليم الجغرافي في البيئة العربية فتشكل في ذهن المتلقي

---

(35) تفسير التحرير والتنوير :27/ 300.

(36) كتاب الصناعتين، العسكري/368.

(37) الكناية في القران الكريم / 100-101.

على نحو تجريدي أو واقعي بواسطة اللغة التي يحكمها الخيال، فتشكل المكان بيئة حية متحركة مؤثرة لها خصوصيتها الفكرية وخصوبتها البلاغية والفنية المتجددة في النص، لان تصور المتلقي للمكان بدأ تصوراً مادياً محسوساً انطلق من العلاقة الملموسة بينه وبين الأشياء المحيطة به في بيئته، حيث جعلت الجنة بيئة مكانية متكاملة لكثافتها ولاحتوائها موضوعية العناصر الداخلة في تكوينها، فالكل يحتوي الجزء وينطوي عليه.

المحور الثالث: مكان أصحاب الشمال

بعد أن تم الحق – سبحانه – في المحور الأول والثاني وصف ما فيه الصنفان المحمودان اتبعه وصف أضداده م فسماهم (أصحاب الشمال) وهم آهل النار والشقاوة قال الزمخشري فيهم عدة أقوال:

- الذين يؤتون صحائفهم بشمالهم.
- أصحاب المنزلة الدنية من قولك: فلان مني بالشمال إذا وصفته بالضعة.
- أصحاب الشمال أشقياء لان الأشقياء مشائيم على أنفسهم بمعيشتهم.
- أصحاب الشمال هم الموجهون في النار ذات الشمال(38).

ومن خلال هذه الأقوال يتبين "إن الكافرين يأخذون نتيجة الحساب كتابهم بشمائلهم، فيجدون العذاب والعقاب فتكون منزلتهم دنية فهم الأشقياء المشائيم على أنفسهم" (39) مكانهم في النار فاستغنى عن ذكر المكان واكتفى بذكر

---

(38) الكشاف: 4/ 363 .

(39) الكناية في القران الكريم / 297 .

المكانة(40)، وكرر اللفظ نفسه مسبوق بالاستفهام (أصحاب الشمال وما أصحاب الشمال) لإعطاء معنى التهويل والتفظيع والتعجيب من حالهم فالذين يأخذون كتبهم بشمائلهم ما حالهم وكيف يكون عقابهم وهل تدري من هم؟ ما هي صفاتهم؟ ففيه تعجب لحالهم في دخولهم النار وشقائهم(41)، وإذا قارنا استفهام أصحاب اليمين مع استفهام أصحاب الشمال لوجدنا الجواب كمن قال أصحاب اليمين في غاية احسن حال و أصحاب المشأمة في غاية سوء الحال.

وكما لأصحاب اليمين نعيم حسي قوبل عند أصحاب الشمال بعذاب حسي فهم (في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم) فأصحاب الشمال محرومون من نعمة الراحة والجلوس دائماً حل بهم الشقاء والعذاب منذ البداية واول العذاب هو وصف مناخ جهنم فشكل الظل مساحة واسعة من المكان أي كان بمثابة المحتوى لبقية أصناف العذاب الأخروي فالدائرة الأولى تمثل ذلك الظل والدوائر الباقية تمثل أصناف العذاب الأخروي وهي تدور في فلك الدائرة الأولى، فكان الكافرين يدورون في دوامة من العذاب لا تنفك عنهم أبدا قال تعالى: (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها)(42) فهم في حالة الاستمرارية المفزعة التي لا راحة فيها أبدا..

فالعذاب يبتدئ من الكل المؤدي إلى الجزء على العكس من نعيم الجنة الذي يبتدئ من الجزء المؤدي إلى الكل فعند وصف النعيم كان الابتداء بهيئة الجلوس

---

(40) سورة الواقعة ومنهجها في العقائد / 39.

(41) صفوة التفاسير، الصابوني: 3/ 308.

(42) سورة النساء: 56

والراحة مروراً بالنعم الأخروي وصولاً إلى النعيم المعنـــوي، والشكل المخروطي فيه يؤدي إلى النهاية أو مكان واسع، وعلى الضد من ذلك وصف العذاب حيث كان الابتداء بالاحتواء مروراً بأنواع العذاب الأخروي وصولاً إلى الخلود في النار والشكل المخروطي فيه يؤدي إلى نهاية أو مكان ضيق بمجرد النظر إليه يبعث على النفور في النفس فيما اكتفي بالمشاهدة دون المعاينة، فيشعر المتلقي كأن العذاب يحويه وحده لا اكثر منه ويستمر العذاب فهم في ريح السموم الشديد الحرارة الذي لا بلل معه وكأنه مأخوذ من السم وهو ما يهلك إذا لاقى البــدن، والحميم الماء الشديد الحرارة فهي حرارة تدخل في مسام الجلد فيهلك صاحبه مع أن النفس تلتمس الراحة في الهواء والماء وهــو مضنة الراحة فادا به حميم فيخيب الماء آمالهم (43)، وليس هذا فحسب بل ظلهم من يحموم فهم يفزعون من السموم إلى الظل كمــا يفزع آهل الدنيا فيجدونه ظلاً من يحموم أي دخاناً اسود شديد السواد ووصف بأنه ظل دخان لهيب جهنم، والدخان الكثيف له ظــل لان كثافته تحجب ضوء الشمس وانما ذكر من الدخان ظله لمقابلته بالظل الممدود المعد لأصحاب اليمين فإذا ما قارنا هذه الصورة الرهيبة بصورة ظلال الجنة اكتملت لنا الصورة الرائعة والأسلوب المعجز في عذاب المجرمين فلا ظل لأصحاب الشــمال وانمــا ذكر من قبيل الاستعارة التهكمية ولتحقيق معنى السخرية، وهذه السخرية تذكر الذين به فاءوا إلى الظل البارد في حياتـــهم الدنيــا ليتقوا به سقرات الهجيرة ولفح سمومها. وهذا الظل ليس بظليل ولا كسائر الظلال سماه ظلاً ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه لمن يأوى إليه من أذى الحر وذلك كرمه ليمحق ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه والمعنى انه حار ضار إلا أن النفـــي فــي نحو هذا شأنا ليس للإثبات ففيه تهكم فهم

---

(43) سورة الواقعة ومنهجها في العقائد /61.

لا يستاهلون الظل البارد الكريم الذي هو نصيب لاضدادهم في الجنة (44)، فنفي الحــالتين عنه اثبت ضديهما. وبعد الظل تأتي أصناف العذاب الأخرى متمثلة بالجوع والعطش والحرمان من الماء، فطعامهم من شجرة زقوم منبته النار ولما كان الشجر معدن الثمار الشهية كالسدر والطلح بينه بقوله (من زقوم) أي شيء في غاية الكراهة والبشــاعة فــي المنظر طلعها كأنه رؤوس الشياطين (45)، والزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على الجهد لكراهتها طعماً في عروق الحلــق أثناء البلع(46)، إذن الجوع طاغ والمحنة غالبة وان الشوك الخشن ليدفع إلى الماء لتسليك الحلوق فيندفع المجرمون ليشربوا من الماء ولكن أي ماء؟ انه ماء يغلي يشربون منه فلا يرتوون بل يزداد عطشهم والمهم لأنه من حميم لا يروي غلّة ولا ظمأ فيشربون ويعاودون الشرب كالإبل العطاش التي يصيبها داء الهيام الشبيه بالاستسقاء فتشرب حتى الموت ولا تحس رياً وهل يمكن للزقوم الذي امتلأت منه بطونهم أن تطفيه نار جهنم؟ إنها تزيده توقداً وتزيدهم ظمأ، ووجود التشبيه زاد حالهم فالمشبه والمشبه به موجودان لكن حذفت الأداة ووجه الشبه فهو تشبيه بليغ وحذف الأداة يعني "أن المشبه هو المشبه به في الصفات من غير تقييد بالمشابهة أو المماثلة" (47)، وفي هذا التشبيه عذاب نفسي فضلاً عن العذاب الحسي لان تشبيههم بالإبل يعطي الإحساس بالصغار والحقارة وهم سادة القوم في الدنيا، فتقديم المعاني الحسية للمعاني المجردة في الصورة التشبيهية هو اقدر على إحداث الاستجابة المناسبة عند المتلقي وتهيئة المناخ النفسي الملائم للتجربة اللاشعورية

---

(44) الكشاف: 4/ 55 .

(45) نظم الدرر : 212/19 .

(46) لسان العرب، مادة(رقم):268/12.

(47) بناء الصورة الفنية في البيان العربي، موازنة وتطبيق، د. كامل حسن البصير/280.

وان التشبيه القائم عليه "اظهر و أبين من أن يحتاج فيه إلى فضل بيان"(48) وإعادة لفظة (شاربون) جاء توكيداً لفظياً لنظيره وفي ذلك زيادة تقرير ما في هذا الشرب من الأعجوبة وهي انه مع كراهته يزدادون منه فيزيدهم تقطيعاً لأمعائهم لإفادة التعجيب من حالهم تعجيباً ثانياً بعد الأول فان كونهم شاربين للحميم علـى ما هو عليه من تناهي الحرارة أمر عجيب وشربهم له كما تشرب الإبل الهيم في الإكثار أمر اعجب فكانتا صفتين مختلفتين(49)، ثم ختمت حياة العذاب بالنزل والنزل مكان ما يعد للضيف وقت حلوله كرامة له (50) لكن لأصحاب الشمال هذا نزلهم الذي لا راحـة فيه ولا قرار في اليوم الذي كانوا يشكون فيه ويتساءلون عنه ولا يصدقون خبر القران به كما كانوا يشـركون بـالله ولا يخافون وعيده بذلك اليوم المشهود (51)، وفي هذا استعارة تهكمية فـ (النزل) يصح التعبير به في مواطن الكرامة والاحتفاء بالضيف لا في مواطن الشدة والعناء، والعذاب ليس مواطن الخير والتكريم لكن أطلق هنا تجوزاً للنكاية والتشفي أو السخرية والتهكم . و "مـن شأن هذا الأسلوب القرآني تحقيق دلالته البليغة المؤثرة في المتلقي إذ أن التضاد الحاصل عن طريق العكس في كلام يحقق إيصال معنى الآية على نحو اشد وقعاً واكثر إيغالاً في النفس المتلقية لما فيه من الإبدال التهكمي والسخرية اللاذعة" (52). ويبلغ العذاب والألم النفسي ذروته إلى درجة تفكير المجرمين بالموت والانتهاء وهو شعور ينتاب الإنسان عندما لا يبقى لـه أمل بالخلاص، وهكذا تحول الموت بالنسبة لهم إلى قيمة

---

(48) أسرار البلاغة، الجرجاني / 51 .

(49) تفسير التحرير والتنوير : 27/ 311

(50) نظم الدرر : 19 / 218 .

(51) في ظلال القران ، سيد قطب : 699/7.

(52) الكناية في القران الكريم /203 .

جمالية من حيث المعنى ومن ثم اصبح هدفاً وغاية (53)، لان الحس المأساوي الذي تشكله الحياة بالنسبة إليهم في لعذاب يحول الموت إلى قيمة عليا لأنه المخلص النهائي من العذاب الذي تبلور وتشكل في الحياة(54).

وفي ختام وصف مكان الأصناف الثلاثة نقول أن كان للمكان خصوصية وهوية معينة فان ذلك يعكس بعضاً من جوانب الشخصية الإنسانية وإذا ما أمكننا التفريق بين مكان أخر على وفق هذه الهوية فانه يمكننا التفريق بين نمط من الشخصية أخر "فالمكان هو الذي يحدد صورة أصحابه ويمنحنا العماد اللازم الذي يقتطعون بمقتضاه مستقراً لهم بأذهاننا(55). إذن من خلال ما تقدم من وصف يتبين إن العلاقة وطيدة بين المكان والوصف بوصف الأخير آلية تشكل الأول وتكسبه الهوية (56) بل إن الوصف يدخل المتلقي إلى قلب المكان بأشيائه وظواهره وتفاصيله: يقول محمد شوابكة "إن الوصف وأسلوبه من حيث تحديد أبعاد المكان ورائحته وتضاريسه وأشياؤه هي التي تمكن الكاتب من نقل القارئ من مكان إلى أي مكان يريده" (57) إلى مقروء لا يكتفي بالتصوير والتسجيل وانما يهبط إلى باطن المكان لالتقاط اللامرئي وتجسيد الخطوط الخفية التي تربط بين الأشياء (58)، وقد جاء النص مليئاً بالمقابلات المكانية العامة التي تمثل الإطار الذي يحيط بالمكان

---

(53) الجمال في الوعي الشعري العربي قبل الإسلام، هلال محمد، أطروحة دكتوراه / 170 .

(54) القيم الجمالية في السور المكية / 90 .

(55) المكان ودلالاته في رواية اللجنة لعبد الله إبراهيم، عبد الصمد زايد، مجلة حوليات الجامعة التونسية، ع 29 ، 1988م/61.

(56) شعرية المكان في الرواية الجديدة، خالج حسين حسين /128 .

(57) دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف، مجلة أبحاث اليرموك ، مج 9،ع2 36/1991.

(58) شعرية المكان / 120 – 121 .

وبخاصة – التي تمثل المحتوى لهذا الإطار النابعة من الوصف الانتقائي للمكان الجنة / النار ليعمل على خلق بعض العلاقات الدالة داخل نسيج النص وهذه المتقابلات تعمل على نقل النفس في لحظات بين الهدوء الشامل والنعيم الرائع، تنساب فيه وتتامله باعجاب وبين الخوف الرهيب والعذاب الموجع ترتاع منه وتتصدع خوفا وهلعا واولى هذه الثنائيات : ثنائية الاستقرار / الاضطراب ، فالمستقر في جنات النعيم هو مكان السابقون واصحاب اليمين قال تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقر واحسن مقيلا)(59) فهندما خاطب النص المتلقي ركز على هذا العنصر كونه من أولى حاجات الإنسان حيث إن الإنسان يعلن دائما عن حاجته إلى قرار وجوده والبرهنة على كينونته من خلال الإقامة في مكان ثابت سعيا وراء رغبة متأصلة في الاستقرار وطلب الأمن للذات والقران وضع هذا العنصر في صلب استراتيجيته لبناء المكان في الآخرة " إذ أن أمكنة الاستقرار لاتنفك أن تبث حزمة من الدالات ... التي تكشف عن العوالم الخارجية والداخلية للقوى التي تسكن هذه الأمكنة"(60)، وهو يربط نعم الجنة التي وعد بها الذين آمنوا وعملوا الصالحات في اليوم الآخر بالملذات التي في الحياة الدنيا ويجعل من هذه النعم الدنيوية مقدمة لتلك التي هي اعظم منها واوفر بمقدار لا يعلمه إلا الله سبحانه ولكن هذه النعم الدنيوية لا دوام لها ولا بقاء بل هي زائلة فانية و الإنسان من طبعه الخوف من زوال النعم فعندما يعيش منعماً في الدنيا وهذه النعم زائلة يقترن تفكيره بالخير الإلهي الأخروي الذي لا ينقطع ولا ينضب معينه ودوام النعم يبعث على الاستقرار وهو ما يبحث عنه الإنسان منذ بدء الخليقة. وما يقابل هذا الاستقرار في الجنة

---

(59) سورة الفرقان : 24 .

(60) شعرية المكان / 99 .

الاضطراب فـي النار المرتبط بأصحاب الشمال "فالصلة بين المكان والأحداث تلازميه إذ لا نتصور النظر إلى الأحداث بمعزل عن الأمكنة التي تدور فيها وانطلاقاً من تحديد العلاقة بين هذين العنصرين يمكن النظر إلى فعل الشخصيات" (61) فمكان أصحاب الشمال يمتاز بقبحه وعدم صلاحيته للسكن والاستقرار وهاتان الصفتان تدلان على انه لم يهيأ إلا ليكون دار عذاب ومهانة وذلة لاهله فهم فـي حر نار ينفذ في مسام البدن وتحرق الأجسام لظاها وظل دخان قاتم لافح وأي ظل هذا وقد ألف الناس الظل يمنح البرد والطمأنينـة، كما إن لا طعام لهم أصلا لان الطعام ما اشبع واسمن أما طعامهم فهو الزقوم. فإذا لم يجد الإنسان الطعام والشراب والظل أي استقرار هذا الذي يرتجيه؟ فأصحاب الشمال في حالة اضطراب وحركة والحركة حياة فيها من عدم الاستقرار والاضطراب اكثر من الهدوء والراحة فهم في حالة بحث دائم عن الطعام والماء والظل و هذا الإطار – الاضطراب – يصبغ نفسية المتلقي بصبغة سوداء تجعله يشعر بالمرارة والأسى فالمكان في هذه الحالة ليس مساحة بل يمثل له حالة نفسية لانه سيلتمس الأبعاد المادية للمكان من خلال إحساسه بمعاناة من يقطنه .

أما الثنائية الثانية الأليف/ المعادي، فالطبيعة نبع الجمال في الكون حيث يستمد منه لبوسه الفنية والنفسية وتتحول بموجبه الأشياء الجامدة إلى حياة وألفة وانتماء لذلك يعرف الجمال أحيانا بالسكون الحي والهدوء النشيط (62)، بل إن الإنسان يعد نفسـه جزءاً من الطبيعة وامتداداً لها أو شكلاً من أشكالها وبينه وبينها

---

(61) المكان في رسالة الغفران، عبد الوهاب زغدان/ 20.

(62) النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، روز غريب / 20.

علاقة تنبض بالحياة تبدأ هذه العلاقة بفهم الطبيعة ثم محاولة التالف معها إلى أن يتكون إحساس من التعاطف والتواصل، ونحن في هذه السورة لدينا ثلاثة أمكنة جعلناهما اثنين ما بين الجنة والنار فالصفات المكانية للجنة على وفق بيئة العربي – المتلقي – تشكل له مكاناً أليفا يسعى إلى الوصول إليه لان حضور الأماكن الطبيعية في النص يولد الشعور بالراحة والانبساط والهدوء الذي توفره الطبيعة عند لجوء الإنسان إليها بما تحمل من ملامح الألفة والبهجة والخصب والانتفاع والتجدد فيشعر بالأمان أما الصفات المكانية للنار بالنسبة للمتلقي تشعره بأنه محصور ومحاصر بالضيق والقسوة حيث تتداعى على فكرة معاني الخوف دون جهد وهذا بدوره يوجد مشاعر العداء بينه وبين المكان، وكما قلنا أن كل ما وعد الله به أو أوعد به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهده من جنة ما لا يغادر قدره وكأنه ما عندنا منه إلا المسميات(63)، وعلى وفق ذلك فمكان النار وعذابها سيكون ابن المخيلة البحت لدى المتلقي ستتشكل أجزاؤه على وفق منظور مفترض يستمد خصائصه من الواقع إلا انه غير محدود فيربط المتلقي بين الواقع والمكان المتكونين في المخيلة عن النار فيحدث تغريب مكاني يعمل على افتراس الألفة الإنسانية بينهما وسيتحول المكان عندها إلى مقبرة الإنسان يختزن الموت دون أن يظهره.. إذن إن علاقة الأمكنة بعضها ببعض لها دلالتها العميقة وابعادها الرمزية شكلاً ومضموناً، ووجود الأمكنة المختلفة في السورة شكل فيما بينها علاقات تتعلق بالتحالف والتضاد وبالجاذبية والتوتر، فالنص القرآني عندما تحدث عن أوصاف المكان في الجنة المتمثل بمكان (السابقون + أصحاب اليمين) جعل بالمقابل على الضد مكان (أصحاب الشمال) فالمتلقي عندما يعقد مقارنة بين المكانين بالية التضاد

---

(63) الكشاف: 2/ 385 .

سيعطي لنفسه مجالاً للتفكير بين الشيئين المتقابلين ليأتي بعد ذلك الحكم على أيهما أحق بالاتباع وعلى أيهما بالاختيار فيتولد عن هذه المقارنة ثنائيات متضادة ترتبط بالمكان ما نلاحظه من خلال ذلك إن آلية التضاد هي اكثر حضوراً في بنية الأمكنة وتوزيعها في النص، ونجم عن هذه الآلية انتظامات مكانية متقابلة مؤهلة للكشف عن رؤية النص للمكان بلاغياً – التقابل – وكذلك الرؤى الخاصة بالمتلقي للمكان.

فظهر لدينا التضاد الاتجاهي ويمكن التمثيل له بالثنائية المضادة أعلى/ اسفل فالنص عرض أمكنته بهذا الشكل مكان عالي (الجنة) يقابله مكان سفلي (النار) لعكس التناقض المصيري بين الفريقين، فثنائية الأعلى والأسفل لها تأثير بالغ في تفكير الإنسان فالترف والرفاهية والراحة نجدها تتموقع في الأعلى، والحرمان والبؤس يتموقعان في الأسفل، فوعي المتلقي يشحن هذه الاتجاهات المكانية بالدلالات الرمزية فكل ما يتجه نحو الأعلى يمنح الدلالات الإيجابية التي يمنحها الوعي فالأعلى مكان: الإله، والنور ... ، أما ما يتجه نحو الأسفل فيجوز دلالات مضادة السلب والبؤس، مكان الأبالسة والجن، والعتمة،ومكان الموتى والخوف ... فإذا ربطنا دلالة الأعلى بمكان (السابقون واصحاب اليمين) وجدنا انهم ينعمون بمناعم كثيرة غير معدودة في جنة عالية قال تعالى: (في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية) (64) حيث تتأكد خاصيته ورفعة المكان الذي يليق بالمتلقي ذوي الدرجات عالية، أما مكان (أصحاب الشمال) فهم يذوقون العذاب في جهنم وهي الصفة الغالبة للنار قال تعالى: (... سيدخلون جهنم داخرين) (65) وجهنم بمعنى القعر البعيد

---

(64) سورة الغاشية: 10.

(65) سورة غافر: 60 .

وسميت به جهنم لبعد قعرها (66)، أو يذوقون العذاب في الهاوية قال تعالى: (... فأمه هاوية،وما أدراك ماهية نار حامية) (67) وسميت بذلك لغاية عمقها وبعد مهواها(68)، وترتبط هذه الدلالات بالأسفل الذي بلا شك يتماثل مع شدة الضلال والكفر والعصيان ليكون الجزاء متعادلاً مع شدة النار والعصيان. فبنية التصورات المكانية للجنة/ الأعلى، والنار/ الأسفل تنبثق من التجارب المكانية للمتلقي أي من تفاعله مع المحيط الفيزيائي، عندها سيكون (الجنة) امتداداً للإنسان فإذا ما وصف نعيمها وصف الإنسان فينشأ بذلك التأثير المتبادل بين المتلقي والمكان.

ونحن عندما قلنا إن الجنة = أعلى، والنار = اسفل، لم يقصد بالعلو والانخفاض الراجع إلى خط مستوى النظر بقدر ما هو راجع إلى مستوى اللفظتين المتقابلين الجنة / النار بالنسبة لبعضهما، فبين المكانين تقابل حركي أحدهما ينسحب إلى أعلى والآخر يبتعد عن هذا المستوى.

أما النوع الآخر من التضاد فهو التضاد الامتدادي ويمكن التمثيل له بالثنائيتين يمين/ شمال وإذا ما سأل سائل بماذا ترتبط هاتان الثنائيتان في عقيلة العربي قبل الإسلام؟

المعروف إن العرب سكنوا الجزيرة العربية والريح التي كانت تهب عليها ريح الشمال وهي ريح شديدة البرودة قوية العصف إذا هبت ليلاً، وهي أيضا ريح تسف الرمال وتعمي العيون وتلفح الوجوه إذا هبت نهاراً ونتيجة لمعرفة العرب

---

(66) لسان العرب، مادة (جهنم): 112/12 .

(67) سورة القارعة : 9-11.

(68) لسان العرب، مادة (هوى):373/15 .

بذلك صار الشمال مكروهاً عند العرب وصار يقابله اليمين وهو موضع الخير والرجاء والأمل(69)، ومن هنا بدأ ينبت الإحساس بخير اليمين وشر الشمال وصار اليمين موضعاً للتفاؤل والشمال موضعاً للتشاؤم. فعند إضافة لفظة (أصحاب) إلى اليمين والشمال اعتبر "أصحاب اليمين هم المؤمنون في الدنيا وهم الذين سيكونون أصحاب الجنة في الآخرة، وسمي الذين يموتون على الكفر أصحاب الشمال لأنهم سيكونون أصحاب النار في الآخرة" (70)، إذن فاليمين والشمال قي العقيلة العربية مستمدة من البيئة من المكان، والضد يجلب إلى الذهن الضد فعندما يذكر (أصحاب اليمين) تحدث لدى المتلقي حركة ذهنية تسير بمسارين متوازيين هما: حركة الذهن نحو التداعي فاليمين سيرتبط بالدلالات المخزونة في الذاكرة عنه "وهذه الدلالات مغيبة على مستوى النص لكنها موجودة بالقوة لكون الحضور يفترض الغياب ويستدعيه"(71). وحركة الذهن وانتقاله من الشي ء إلى ما يقابله أو يخالفه وهنا سيتمثل بالشمال وتداعياته.. فعندما وصف مكان أصحاب اليمين وأصحاب الشمال لم يقصد به إحالة المتلقي إلى المحيط الخارجي ليعد مقارنة بين المفردات اللغوية التي قدمت له وبين مفردات هذا المحيط، بل انه يقصد قصداً إلى حمله على تلقي خبراته الداخلية التي يمكن ان تتحول بها نفسية المتلقي إلى مرآة عاكسة تتلقى هذه الخبرات وتختزنها وتسترجعها بين الحين والآخر كلما عايش تجربة مشابهة أو مرّ بموقف مماثل وبذلك يترسخ المكان في الذاكرة بما تضفيه هذه الثنائيات أعلى/ اسفل، يمين/ شمال ذات الخصائص المكانية من أبعاد بصرية على الأفكار المجردة وتجعلها مفهومة إذ "إن التصورات الفيزيائية مثل

---

(69) التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القران، عودة خليل أبو عودة /533 .

(70) م. ن / 531 – 532 .

(71) شعرية المكان / 160 .

فوق/ تحت... أعلى/ اسفل ، يمين / شمال ... الخ تعد أساسية في النسق التصوري للفرد وبدونها لا تتمكن من الاشتغال كأن نفكر أو نتوصل" [72] فالمكان عندها سيكون مفتوحاً له مقاربة مع وعي الإنسان على تعدد مستوياته وهذا ما كان يهدف إليه النص القرآني الذي خاطب في الإنسان فطرته.

ولما كانت قضية البعث والحياة الآخرة غيباً لا قضية منظور، قضية يعول فيها على اقتناع القلب وتصديقه، فأننا نجد القران لا يسلك لاثباتها سبل الجدل العقلي إلا في القليل، وانما يعتمد في الأكثر على التأثير الوجداني والتحريك الضميري واستجاشة المشاعر والاحساسات، وهو يغرس العقيدة في الضمائر بقوة وثبات لا ترقى إليها وسائل المنطق والتجريدات الفلسفية وآية ذلك انه جعل الطبيعة مجالاً لهذا التأثير الفعال فكانت بعناصرها وظواهرها المختلفة وسائل مجدية لتحقيق المقصد الذي يسعى ويهدف إليه، وهذا ما نراه متجلياً واضحاً من خلال التقابلات المكانية الخاصة بين الجنة و النار، ولزيادة التأثير في نفوس الناس وجرياً على منوال منهج القران الكريم في تناوله لهذين المكانين فانه يقابل بينهما لتحقيق الرغبة ولأحداث الرهبة لدى المتلقي من جهة، ولبيان مزايا هذين المكانين الضدين الواسعين بأيسر طريقة و أوجز بيان. فقد وضعت الجنة في النص بأحسن الصفات التي توحي بالاستقرار التام والراحة الدائمة ورغد العيش وطيب المقام، أما أهل جهنم "فأنهم محرمون من نعمة الراحة والجلوس والتمتع في مثل هذه الأماكن وانما حل بهم الشقاء والعذاب محل الراحة والنعيم" [73]، أما ثاني

---

(72) الاستعارات التي نحيا بها، جورج لايكوف / 81.

(73) المكان في القران الكريم، يوسف سليمان، أطروحة دكتوراه/ 303.

وسائل الراحـة الطعام والشراب وهما من أسباب ديمومة الحياة للبشر، وطعام أهل الجنة كثير ومتنوع في الشكل والطعم من الفواكه والطيور وأصناف كثيرة لا تحصى(74)، فطعام السابقون وأصحاب اليمين يمتاز بعدم تعرضه للنفاد والزوال، فضلاً عن استمرار الرزق ودوامه وفي هذا الطعام خصيصة مهمة يمتاز بها المؤمن وهي حرية الاختيار بين أصناف الطعام وهذه الحرية تشعر الإنسان بقيمته، أمـا الشراب فقد خص بالكثرة وبالطعم اللذيذ والتنزيه عن جميع آفات شراب الدنيا، وفيه خاصية تميزه أيضا هي ارتواء الشارب منـه، وهذا فيه معنى التكريم والتبجيل. وبينما يكون الذين آمنوا أعزاء كرماء في جنات بالمقابل يعاني أهل النار من أطعمة واشربـة تشوي بطونهم وأحشاءهم شيأ وأبأس أطعمتهم شجرة الزقوم، فحين يعضهـم الجوع يضطرون اضطرارا إلى الأكل منهـا يريدون أن يملـؤا بطونهم فيملؤهـا بما يشبه النحاس والفلزات المنصهرة ألم عنيف ومأساة حقيقية تتمثل في استلاب حرية الاختيار لان عدم وجود أصناف غير هـذا الطعام ينفي عنه صفة التلذذ التي تبعث على الشهية في تناول الطعام والشراب، فيدفعهم هذا إلى العطش فيندفعون ليشـربوا من الماء المغلي (الحميم) الذي لا يروي غلة ولا ظمأ فيشربون ويعاودون الشرب مراراً لا يرتوون كالإبل العطاش، فيحاولون الـفرار من هذا العذاب فيفرون من حميم الى حميم متأجج (يطوفون بينها وبين حميم آن (75)، أي يدورون بين الجحيم والحميم على الغير من أهل الجنة الذين يطوف عليهم فهم مخدومون لا يتكلفون شيئاً من الجهد في دار الراحة والرضوان، وبعد كل هذا مـاذا يظـل أهل النار؟ يظلهم ظل غير ظليل لا بارد كسائر الظلال

---

(74) أحياء علوم الدين، الغزالي : 524/4.

(75) سورة الرحمن: 44.

ولا واق من سموم النار بل ظل من سموم أو دخان خانق وفي ذلك انتفاء للكرامة، وإذا ما قارنا صورة هذا الظل الرهيب بصورة الجنة الوارفة. اكتمل لنا المشهد الرائع وافصح الأسلوب المعجز في بيان عذاب المجرمين ونعيم المؤمنون فظل أهل الجنة يحي النفوس ويملؤها مسرة، فليس في الجنة حر ولا القرار وانما جوها معتدل وكأنما ظلال الغصون فيها للمتاع وزيادة النعيم (أكلها دائم وظلها) (76) ومن صفات هذا الظل انه ممدود لايتفاوت من مكان إلى مكان ولا ينقص من مكان بالقياس إلى مكان آخر وهذا زيادة في النعيم. ومع هذا النعيم واللذات الحسية المتنوعة هناك لذة معنوية (السلام) وهو من أهم أركان المكان الأليف ودعائمه لانه يوفر الأمان والاستقرار ورغد العيش ويبعدهم عن كل شر وأذى، فجمعوا بين شيئين تتمناهما الأنفس، وهذه المعاني كلها من أهم عناصر المكان المحبب وركائزه. أما أهل النار وعلى الضد فدائما يقترن بالعذاب الحسي عذاب نفسي فالكفار لا يشقون بالظلام ولا بالنار وتحريقها ولا بالزقوم وطعامه الكريه ولا بالصديد وشرابه. فحسب بل يشقون أيضا بأهوال نفسية تعذب بها نفوسهم كما تعذب أبدانهم منهم في (عذاب مهين) يذوقون فيه كل ألوان الهوان (وترهقهم ذله)(77) لا تكاد تبقي فيهم بقية من إنسانيتهم فلم يعد لهم منها سوى الندم والحسرة والشعور العميق بالذل والهوان.

لقد اكتمل لدينا الآن إطار المشاهد المكانية ومحتواها فالمكان الأول تميز باكتمال النعيم الذي انبثق عنه الترغيب بالنعم الأخروية التي بشر بها المؤمنون، فقد جعل القران الفوز بالجنة رهن شيئين متلازمين: الإيمان وهو العقيدة التي

---

(76) سورة الرعد: 35.

(77) سورة يونس: 27.

يحملها المسلم، وعمل الصالحات وهو يتعلق بتنفيذ ما في العقيدة من مفهومات واخراجها إلى الواقع العملي وهو إذا يشوق إلى الجنة فإنما يحث الناس على الالتزام بهذين الجانبين(78).

أما المكان الثاني فقد تميز باكتمال العذاب الذي انبثق عنه الترهيب بالعذاب الأخروي الذي هدد به الكافرون والجاحدون وشعور الإنسان بهذين الدافعين – الترغيب والترهيب – القويين المتكاملين والمتفقين في الهدف يجعلانه في حالة استعداد تام وتهيؤ كامل للطاعة التامة لله والرسول ولتلبية كل ما يطلب منه من واجبات ومسؤوليات ويتعلم كل ما يوجهه إليه الإسلام من نظام جديد للحياة وطريقة جديدة في السلوك ولتجنب كل ما ينهي عنه الله –سبحانه- ورسوله الكريم.

إذن في الختام نقول لقد امتازت عناصر الجنة المكانية بالكثرة والتنوع والدوام للدلالة على ان الجنة خير مكان ومستقر للسكن والراحة والكرامة من ناحية، ولتلبية رغبات أهلها وساكنيها بإشباع حاجات الحواس الجمالية، أما عناصر النار المكانية فهي محدودة تثقل على النفس وتزيدها ألما وعذابا فضلاً عن قبحها وعدم صلاحيتها للسكن والاستقرار (79)، وهذه العناصر هي المقومات الموضوعية لعملية الإدراك الجمالي لان كل ما يثير النفس من جمال هو جميل في حين كل ما يثير فيها من ألم وعذاب هو قبيح فالجمال من صفات الجنة وخواصها والقبح من صفات النار (80)، وان عملية الإدراك الجمالي لدى أصحاب

---

(78) الطبيعة في القران الكريم، د. كاصد ياسر الزيدي/ 418

(79) المكان في القران الكريم / 309 .

(80) السمات الجمالية في القران الكريم، من وجهة نظر فنان تشكيلي، قيس إبراهيم،أطروحة دكتوراه/197.

الجنـــة متكاملة في جانبيها الذاتي والموضوعي حيث النفوس والعقول والحواس المتفتحة لتلقي الجمال بكل مفرداتــه والتمتــع بــه، أمــا أصحاب النار فعلى الرغم من غياب الجانب الموضوعي من الإدراك الجمالي إلا أن الجانب الذاتي المتمثـل بالنفس والعقـل والحواس حاضر لا لتلقي الجمال وانما لتلقي القبح بكل بشاعته، لذلك فان حالة أهل النار مغايرة جداً لحالة أهل الجنة وكـل حـالـة هي انعكاس للصورة التي كان عليها أهلها في الدنيا ولما كانت حالتهم متباينة في الدنيا فهي أيضا متباينة في الآخرة، وهذا بـدوره يوصلنا إلى نهاية الخطاطة الثانية التي انتهت بسؤال ما هو الاختيار؟ الذي طرحته عملية التقابل المكاني التي ســاهمت مســاهمة فعالة في عملية الإقناع حيث أعطت للنفس البشرية مجالا للتفكير بين المكانين المتقابلين ليأتي بعد ذلك الحكم علــى أيــهما أحق بالاتباع وعلى أيهما أولى بالاختيار.

وقد يسأل السائل ماذا يرمي النص القرآني من إجراء هذه المتقابلات بين الأمكنة وماذا تريد ان تقول لنا هـذه المشــاهد الأخروية المتقابلة في سورة الواقعة؟

نقول ان هناك معنى وسطياً ناتجاً عن التقابل فلا يعنينا أقسام ذلك التقابل البلاغي او نوعه بل ما يهمنا هو كيفية بناء تلك المشاهد المتقابلة وتشكلها في النص القرآني بما يؤدي إلى معنى متكون منها أطلق على تسميته "المعنى الوسطي"وهــو المعنــى الذي يكون الغاية الأساس الذي يبنى من اجلها التقابل، فهذه المشاهد المتقابلة بنيت بناء يقود في كل جزيئاته إلى ذلك المعنى الـــذي تكون من تقابل الأمكنة(81)، فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة هي قضية النشأة الآخرة التي

---

(81) تقابل الصور في القران الكريم، ثائر حسن، أطروحة دكتوراه / 25.

أنكرها الكافرون والقران عندما فصل مصائر الناس وما يلقونه من نعيم وعذاب وصفا مفصلا أوقع في الحس أن هذا أمر كائن واقع لا مجال للشك فيه فهذه أدق التفاصيل معروضة للعيان وكأن العذاب هو الحاضر والدنيا هي الماضي (82)، والذي صدر عنه هذا التنظيم والتنسيق والتقسيم بين أصناف الناس لابد أن تكون له تمام القدرة على إيقاع الواقعة وتحقيقها فهي ستقع وقعة صادقة ليس لها رجعة ولا ارتداد، وسيترتب على هذا الوقوع مشاهد محسوسة للفائزين بالجنة والخاسرين الذين يساقون إلى جهنم. وان التعبير عن القيامة بالكناية (الواقعة) نقل فكرة البعث والنشور من دائرة الجدل إلى المسلمات(83)، وقوله بعدها (ليس لوقعها كاذبة) جاء لتاكيد ذلك المعنى الوسطي وترسيخه في الذهن والحس. فهي لابد واقعة كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة فهي ذات إيحاء مقصود في صدد الارتياب فيها والتكذيب.

الحركة والتوتر بين المتقابلين

اتسمت المقابلة في النص بالحركة والتوتر والحركة هي نزعة المتقابلين إلى التباعد او نزعتها إلى التقارب، أما التوتر فهو التالف أو التنافر بين اللفظيين المتضادين في أثناء هذه الحركة فيكون المفهومان وثيقي الصلة إذ يزداد التوتر عادة بازدياد النزعة إلى التباعد وينقص بنقصانها، وقد ينزع المتقابلان إلى التقارب بدرجة ينعدم – أو يكاد ينعدم- معها التوتر، إذ يتضافران وينسجمان

---

(82) في ظلال القران: 27/ 694

(83) سورة الواقعة ومنهجها في العقائد / 27.

للتعبير عن معنى واحد (84) وفي التقابل الأول ما بين السابقين –1– واصحاب اليمين –2– نرى نزوع المتقابلين إلى التقارب مما ينتج عنه بالضرورة انخفاض في درجة التوتر مع الاحتفاظ بها، وهنا قد لا نشعر بحركـة أحد المتقابليـن إلى الآخر لكن الحركة تتمثل في اثر العملية على عنصر ثالث يتعلق به المتقابلان هو الإنسان فبيـن 2/1 توتـر ينـزع بهمـا إلى التقـارب فتكون المقابلة تعبيراً عن رغبة بالتأثير في المتلقي بوساطة الترغيب فـ 1=2 لان (1) لاتماثل (2) ولا تتضاد معهـا وذلك لان النعيم مشترك بين أهل الجنان جميعا مقربين واصحاب اليمين على نحو ما جاء في سورة الزخرف (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة انتم وازواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وانتم فيها خالدون وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعلمون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون)(85) فالفارق في النعيم هو خلاف في الدرجة لا في النوع. فليس المقصود توزيع النعيم ولا قصره ولكن المقصود تعداده والتشوق إليه(86). أما في التقابل الثاني ما بين 1 / 2 واصحاب الشمال – 3 – فنلاحظ وجود درجة من التوتر أكسبت المقابلة نوعاً من البروز في السياق وزودتها بشحنات دلالية متقابلة يفجرها النص للتعبير والتأثير. وتهدف هذه العملية إلى

---

(84) دراسة في البديع وجماليته، د. محمود محمد محمدين / 25-26 .

(85) سورة الروم :15 .

(86) تفسير التحرير والتنوير: 27/ 303 .

مقارنة تفاضلية (87) بين المتقابلين وهذه المقارنة تسير على وفق ثلاثة خطوط هي:

- تحسس الفوارق المكانية بين 1 / 2 وما يقابلهما 3 .

- الصراع النفسي للمتلقي ما بين قوتي الإيمان والمعصية، فالإيمان هنا يؤدي إلى الجنة والمعصية تؤدي إلى النار وهذا الصراع تتحكم فيه ثلاثة أشياء:المهيئات والأدوات والبواعث.

البواعث = حاجة الإنسان إلى الاستقرار والمكان الأمن والعيش الرغيد وهذا ما نلمسه من خلال صفات المكان في الجنة.

المهيئات = مواصفات المكان الجنة / النار التي يعرضها النص.

الأدوات = ما علق في الذاكرة من صور وصفات أي الخبرات السابقة للمتلقي عن المكان.

والتقابل يعمل على تتبع صورة التجاذب التي تقوم بين هذه الأشياء عن طريق التداعي.

- الصراع العقائدي فالتقابل بين 1/ 2 و 3 ينزع نزوعاً كبيراً إلى التباعد تعبيراً عن هذا الصراع ويمثل هذا الصراع الطابع الأساس والجوهري في المقابلة بين الطرفين وهو صراع يعتمد البرهنة للتأثير في المتلقي عموماً .

---

(87) صورة بخيل الجاحظ الفنية، احمد بن محمد بن امبير بك/100.

Abstract

The Hereafter Spatial Comparison in Soorat Al-Wakiah

Rhetorical descriptive study

***Dr. Asma'a S. Edham Al-khatab*(*)**

Place is considered an important element of stability and tranquility of all creation. Man realized this process since his creation and appearence on the surface of the earth. So he took it as asylum and residence in which he could protect himself. The place, moreover, is a frame which embraces the events of the literary arts as awhole. Therfore; the modern literary studies paid great attention to place. It is not new to say that description as it is described as the technique of formulating the text finds in the place what glorifies its existence and its deep roots in the maps and details of the objects. The character relation with the place is however open to spontaneous and objective visions is its structure and constitution.

(*) Dept. Arabic - college of Arts / University of Mosul

Soorat Al-wakiah is based on the comparision between paradise and its dwellers on one hand and fire and its dwellers on the other hand and the fate of each group in the Day of Resurrection. The style of expressing the verses of this surah achieved by spatial comparision contributed actively in the process of conviction. This style gave man the chance to think of the two compared objects in order to get after that the judgement of which one is the right to be followed and which one is the best to be selected. The research consists of three axes, the first: the place of the predecessors, the second: the place of the people who have got their books on their right hands and the third axis is the place of the people who have got their books on their left hand. Through these axes, we will recognize the most important characteristics of the Hereafter place which carried multi significations and various senses in away that suits the purposes of the Koranic expression.

Finally. we say that achieving the intellectual aspects of the place through the comparison between paradise/fire was not isolated from the nice show, the suitable performance, the excellent production and the skillful imagination. It was on the contrary having a close relations with the abovementioned, criteria

Thus, the spatial comparison was the rhetorical article which showed and made clear the intellectual aspects in a way that could uncover the secrets of this immortal book i.e. the Koran.